أبطال اليهود

بين القرآن والعهد القديم

الأستاذ محمد خليفه التونسي

قبل عامين كتبت مقالا في هذه المجلة مقدما به إلى قرائها كتابا كان ظهوره في تلك الأيام عجيبا مريبا، وكان موضوعه « موسى » ومؤلفه عالما مصريا، وكان مما لاحظته وسجلته في مقالي عنه يومئذ ما نصه: « والمؤلف يسوق قصة موسى كما وردت في القرآن وقصته كما وردت في التوراة على أنهما متكاملتان، وهذا السياق يوقعنا في خطأ كبير. وها أنذا أقرر - ولا أدري أحداً سبقني إلى قراري هذا - أن الصورة التي يتبينها القارئ في نصوص القرآن لموسى تختلف اختلافا كبيرا عن الصورة التي يتبينها له من تأمل نصوص التوراة، وأن الله في نظر موسى كما ذكر القرآن يختلف اختلافا كبيرا عن « يهوه » في نظر موسى كما ذكرت التوراة، فإن موسى المؤمن بالله الواحد غير موسى الذي اختص هو وقومه بعبادتهم « يهوه » مرة، و « إلوهيم » - ومعناها الآلهة - مرة أخرى »(١)، ثم بينت هناك بالإجمال صورة « يهوه » إله موسى كما نستخلص من نصوص التوراة.

وهذه الملاحظة لا تصدق على موسى والإله في نظره فحسب، بل تصدق على كل أبطال اليهود قبله وبعده ممن رسمت صورهم أو جوانب بارزة منها في القرآن والعهد القديم معا، ولو كانت الوقائع في كلا الكتابين متفقة أو كالمتفقة

ولا خلل في هذه القاعدة إذا طبقت على أكبر هؤلاء الأبطال وهو إلههم أو على أصغرهم، ولا حاجة بنا إلى تغيير كثير أو قليل فيها إذا قارنا بين صورتي الإله أو صورتي أي بطل عداه من الأنبياء والملوك والزعماء والعامة سواء أكانوا في الصالحين أم في الطالحين وتجمل النتيجة التي ننتهي إليها بعد عقد كل المقارنات يمكن حصره في هذه العبارة الوجيزة: صور هؤلاء الأبطال في القرآن « صور إسلامية » وصورهم في العهد القديم « صور يهودية »

وقد يشتد الخلاف بين صورة البطل هنا وصورته هناك حتى يبلغ حد التناكر، وتبرؤ كل صورة من الأخرى، كاختلاف الضدين أو النقيضين. وقد بدهشنا بقاء هذه الحقيقة خافية - مع قربها ويسرها - حتى الآن

فالكتابان كلاهما معروفان حق المعرفة للملايين منذ عهود سحيقة، ودرس الأديان وكتبها دراسة مقارنة علم « قائم يدرسه علماء مشهود لهم بالتضلع والأستاذية » في كل جامعات العالم، وعلماء أمثالهم في غير الجامعات، ولكن دهشتنا عند النظرة الأولى خليقة أن تزول عند النظرة الثانية، إذ تتكشف لنا أسباب خفاء هذه الحقيقة القريبة اليسيرة. فمن أسبابه أن القائمين بدراسة هذا العلم علماء غير أدباء، وهم ينظرون إلى موضوعاته نظرة علمية لا فنية. ومن أسبابه أن أكثرهم من صغار العلماء، والعالم الصغير في يده منهج، وفي وجهه عينان ينظران في اتجاه واحد، وليس يلزم نفسه ولا يلزمه أكثر الناس - حتى المثقفين - أن يكون له في رأسه عقل واسع يسع ما يرى، ولا أن يكون بين جوانحه قلب كبير يحس به، فهو إذا أحسن الفهرسة والتعداد والتنسيق Symmetry - وهذا غاية وسعه - كان هذا حسبه في نظر نفسه وفي أنظار الناس، لأن المسألة عنده عملية حسابية تجمع فيها أجزاء إلى أخرى، أو تطرح منها، وليست بنية حية تتأثر وتؤلف كالأزواج والأقرباء والأصدقاء. ومن أسبابه أن أكثر القائمين به من اليهود وتلاميذهم الذين يسيرون على نهجهم المغرض العقيم

فأما العلماء اليهود، فمفروضون لأن همهم تبيين فضل الديانة اليهودية وأسفارها على ما تلاها من الديانات والفلسفات الدينية وكتبها وما إلى ذلك، أو ما تأثر الناس به منها، أو ما كان لها من آراء كالآراء التي كانت للنابغين قبلها وبعدها عند الأمم الأخرى. ومعلوم أن العهد القديم أقدم أسفار الديانات الكتابية وحصر البحث في الحيز الضيق، وتناول النظم بعد تفتيتها على النهج العلمي الجاف هما الكفيلان ببيان فضل اليهود ونبوغهم. وهذا على فرض أمانة

(١) الرسالة: العدد ٨٠٥ ص ١٣٩٠ - ٦ ديسمبر سنة ١٩٤٨

هؤلاء العلماء فى البحث ، وهذا غرض قد يعذر اليهود بشأنه على ما فيه من مآخذ

ولكن لهم غاية شر من هذه الغاية وهم يسيرون على هذا النحو المثال ، هى تشكيك المسيحيين والمسلمين - وهم أقوى مزاحمى اليهود - فى الديانتين ، فالعالم إذا تمكن من تفتيت الدين ، وأعاد كل فتات إلى مصدر قبله ولو لم يكن المصدر يهوديا - استطاع أن يمحق قداسة الدين فى القلوب والعقول ، وبخاصة عند المسلمين الذين يعتقدون أن القرآن وحى من الله أنزله على محمد فبلغه من غير أن تكون له مشاركة فيه ، وهذا يخالف ما يعتقد المسيحيون فى الوحى ، إذ يرون أن كتاب الأناجيل هم كاتبوها بإلهام من الله وإشراق عليهم منه

ونحن إذ نلاحظ ذلك غير غافلين عن أن هذا النهج قد طبق فى مجال أوسع مما أراد اليهود ، فقد قام علماء من غير اليهود ومن اليهود أيضا بعقد مقارنات بين كثير مما جاء فى العهد القديم ولا سيما التوراة وما جاء فى الشرائع والعقائد السابقة له عند الأمم القديمة كالمصريين والبابليين والهنود وغيرهم فزعزعوا من مكانة العهد القديم ما زعزعوا ، ولكن فى أنظار غير اليهود ، فأما اليهود فهم متمسكون بنصوص كتبهم المقدسة وحروفها ونقطها برغم كل نقد وهدم سواء فى ذلك أحبارهم والملحدون الذين ينكرون الله والأديان فيهم . فحتى السلع التى يصنعها اليهود فى نقد كتبهم إنما هى سلع للتصدير إلى غير اليهود لا للاستهلاك المحلى بينهم كما يقال بلغة التجارة ، وهم يروجونها بكل ما لهم من حول وحيلة ، لأن ضررها واقع على غيرهم لا عليهم ، وإنما مثلهم فى ذلك مثل صناع المسكرات والمخدرات وتجارها الذين لا يعاقرونها

وأما تلاميذهم من غير اليهود فمعظمهم بمثابات « تبغبغ » بما تلقن دون فهم أو تصور ، أو هم مورطون بأهواء تحول بينهم وبين الخروج على أساتذتهم ، وأكرم هذه الأهواء أنهم أمام أساتذتهم كهان أوثان فى عالم وثنى أو شبه وثنى يعترف لأوثانهم بالتقدير والإجلال عن جدارة أو عن غيرها . وليس مما يليق فى « صناعة » الكهانة ، ولا مما يغتفر أن يهون الكاهن من شأن وثنه أمام الناس صراحة أو رمزا ، على حين أنه لا ينتظر منهم أن يحترموه إلا لسبب واحد هو أنه كاهن ذلك الوثن .

فتقديره لوثنه تقدير لكهانته هو ، ودفاعه عنه دفاع عن نفسه ، فهو ملتزم شريعته أمام الناس ؛ ولو كان هو به فى أعماق سريرته أكفر الكافرين

وهؤلاء التلاميذ على خير الوجوه علماء لا أدباء ، وعلمهم التحليل والتركيب ، والمنهج التحليلى وحده لا يمكن أن يتأدى بنا إلا إلى ضلال

ومن أسبابه أن من وراء هؤلاء وهؤلاء مستهلكين أو مروجين لا ناقدين ولا صناعا ، وهذا على فرض أن هذه الموضوعات من همومهم ، فكيف وليست هى كذلك ولو كانوا من الثقافة فى أرفع مكان

ومن أسبابه أن هذه الموضوعات تتناول مسائل الدين ، وهى دقيقة شائكة ، والتورط فيها غير مأمون العواقب ، وأكثر الناس - ولا جناح عليهم - يؤثرون لأنفسهم السلامة والعافية ، فلو فهم المهتمون بها شيئا منها ، لآثروا - حبا للسلامة والعافية - أن يقتصروا منها على الفهم لأنفسهم أو مع خلصائهم غير ملومين ، ويتوجسون خيفة أن يظهروها ، وحسبهم بعد كل أنهم « فاهمون »

ومن أسبابه أن هذا العلم - أو هذا النمط من المعرفة الموكل بدراسة الموضوعات - علم حديث أوضيق على رغم ذيوعه ، والدراسة لم تتسع حتى تشمل كل موضوعاته ولا سيما على النهج الفنى الذى نريده ، وهو لم يظفر حتى اليوم بالأدباء والأكفاء الذين يستطيع الواحد منهم أن يحيط فيها علما وشعورا بموضوعه الذى يتصدى له ، ويفقهه حق الفقه ، ونحن مفرطون فى الشطط والوهم إذا انتظرنا من أديب واحد أن يستوعب كل موضوعاته ، فبحسب الأديب إتقان ما يتعرض له منها

ولو أهم موضوعنا هذا أحدا من المسلمين قبل اليوم ، وكان له أهلا لما عز عليه أن يناله لأنه قريب يسير ، ولألحفنا بكتاب ذى أجزاء عدة فى هذا الموضوع الطريف

وهذه هى أهم الأسباب التى يمكن أن تقال - إزالة لدهشة الجهل ، وتعليلا لخفاء هذه الحقيقة - وهى أن صور أبطال اليهود فى القرآن « صور إسلامية » وصورهم فى العهد القديم « صور

يهودية » والخلاف بين صورتى كل بطل منهم خلاف واسع ، قد يصل إلى حد التناكر والتبرؤ ، كما يختلف المدوان اللدودان . وأهم ظاهرة فى هذا الخلاف هو عصمة هؤلاء الأبطال فى القرآن عما لا يليق بهم ، وعدم عصمتهم فى العهد القديم عن ذلك ، وهذا باب واسع ، والطريق من ورائه طويل كثير العقبات ، والسير فيه محفوف بالأخطار ، وأجمل ما يقال إتماما للبيان أن الديانتين الإسلام واليهودية — مع اتفاقهما فى النظر إلى كثير من الأعمال والحكم عليها حكما واحدا — مختلفان أبعد الاختلاف فى النظر إلى أعمال أكثر منها ؛ وفى الحكم عليها ، فمن الأعمال ما تعده اليهودية فرضا لازما ، ويعده الإسلام محرما كل التحريم ، فتحديد ما يليق وما لا يليق عمل شاق كل المشقة وإن يكن ممكنا يسيرا . ومرجع ذلك إلى أن اليهود فوجئوا بديانتهم قبل أن يتمدنوا ويألفوا مع غيرهم ، ويحسوا بالإخاء لهم ، وعت ديانتهم وهم قبيلة بدوية تضرب فى آفاق البلاد شرقا وغربا ، فتداس من القبائل التى هى أقوى منها ، وتستعبد من الأمم التى تتصل بها ، وبقيت هذه الديانة راسخة متماسكة حتى الآن فى القبيلة لأسباب يطول شرحها ، فهى لا تحس بواجب عليها نحو غيرها من البشر ، لأنها عندما تكونت ديانتها كانت فى حالة حرب مع كل الناس ومع الطبيعة نفسها وإلههم نفسه لم يسلم من هذه العداوة رغم حرصهم على عبادته وحده ، فهم لا يتفوهون باسمه مثلا ، وهم يقسمون للبشر . إلى يهود وهم الشعب المختار ، وجويهم وهم من عداهم من البشر ، ومعنى جويهم الكفرة والوثنيون والأنجاس والحيوانات ، وتترجم أحيانا فى العربية بكلمة الأمميين ، وقد عثرت لها على لفظ قرآنى ليته يشتهر ليغنينا فى ترجمة Gentiles ، إذ جاء فى سورة آل عمران فى بيان عدم اعتراف اليهود لغيرهم من الناس بأى حرمة « ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل » أى أنهم غير ملتزمين بأى شريعة فى معاملة غيرهم ، فلهم قتل غير اليهودى وسرقة ماله وانتهاك عرضه ، ولا جناح عليهم فى ذلك عند إلههم « يهوه » كما كانوا يعتقدون ، وكما لا يزالون يعتقدون إلى اليوم(١)

فالأمر إنكار كل حرمة ، لا الاعتراف بها والتعدى عليها

وأعتذر عن سلسلة هذه الحقائق الكثيرة كلها فى هذا الإيجاز الذى قد يجعل بعضها غامضا ، فأكثر هذه الحقائق رءوس موضوعات ، أو قواعد فى حاجة إلى مثال بل أمثلة ، وكل واحدة منها لا يجليها إلا مقال كامل ، وقد أشرت إشارة قصيرة إلى المنهج الأدبى الذى أراه أنسب المناهج لدراسة هؤلاء الأبطال وعقد المقارنات بين صورة كل بطل فى القرآن وصورته فى العهد القديم وأعنى به فن التراجم ، فالمنهج الذى يغنى هنا هو المنهج البيوجرافى الذى يهتم برسم الصور لا سرد السير ، وإبراز « التركيبة » حية كاملة كما فعل بلوتارك فى كتابه « العظماء » والمقاد فى « عبقرياته » دون الاستغراق فى الأجزاء التى تتركب منها « التركيبة » على طريقة العلماء المحققين من المؤرخين ، ولو استوعبت كل جزء

ولن يفوتنى أن أهدى هذا المفتاح المتواضع لمن يتقدم إلى فتح باب هذا الموضوع الطريف ، وان أعفى نفسى من استعماله مرات فى مقالات ستأتى إن شاء الله وعذرى فى إيجاز المقال ضيق المجال

محمد خليفة التونسى

(١) بسطت الكلام فى ذلك وبينت أسبابه فى ثلاث مقالات منشورة فى صحيفة « منبر الشرق » فى الأعداد ٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦١٩ الصادرة فى نهاية نوفمبر وأوائل ديسمبر سنة ١٩٥٠

آلام فرتر

للأستاذ أحمد حسن الزيات

هى القصة العالمية الواقعية الخالدة للشاعر الفيلسوف « جوته » الألمانى .

تطلب من مجلة الرسالة وثمنها ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد